شهادة

بمناسبة تكريم أحمد بيضون

جمعية السبيل

كمال بكداش

لقد حالف التوفيق جمعية السبيل في تكريم أحمد بيضون بالأسلوب الأجمل، بدعوتها طالبات وطلّابًا إلى قراءة بعض نصوصه، ثم الالتقاء به والتحاور معه وجهًا لوجه. وتدعونا المناسبة إلى السؤال: لماذا نقرأ أحمد، ولماذا ندعو إلى قراءته؟

إجابات قرائه الاعتياديين باتت معلومة. فثمة بالطبع ما نتعلمه من نصوصه: معارف غزيرة تتوزع على مجالات شديدة التنوع، تنوعًا لطالما أشار إليه ونوّه به مكرّموه في مناسبات عديدة أخرى. وتلمّح إجابة أخرى إلى ما يمكن، في هذه النصوص، أن نقتدي به: فكر وثيق الاتصال بالمشكلات الحيوية الراهنة لمجتمعه وثقافته، من غير اغتراب مفرط في الثقافة الغربية أو الثقافة التراثية. وتتوارد بكثرة إجابة ثالثة تلفت إلى ما يمكن، في نصوصه، أن يهذّب ذائقتنا اللغوية: أسلوب أخّاذ يجدّد ثقة القارئ بالعربية ويحبّبها إليه.

ولكن كيف نسوّغ، في ظلّ أزمة القراءة لدى الشباب، دعوتنا الطلاب والطالبات إلى قراءته؟

أميل إلى الاعتقاد، تسويغًا لهذه الدعوة، بأنّ لكتابات أحمد أثرًا تربويًّا حميدًا على قرائها. ويتجلّى هذا الأثر، أكثر ما يتجلّى، في نصوصه حول الهويات الطائفية ومفاعيلها في روايات المؤرّخين، وفي إعاقة الإصلاح السياسي والمدني، وفي النزاعات الأهلية.

تناول كاتبنا، كما نعلم، تعدّد روايات المؤرخين اللّبنانيين وتعارضها مع بعضها البعض حول الحقب التاريخية نفسها، والشخصيات التاريخية نفسها، والموضوعات المُؤرّخ لها

نفسها، كموضوع المردة في القرنين السابع والثامن الميلاديّين ودورهم المفترض في مقاومة الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام. [تُراجَع في هذا الصدد أطروحته المنشورة في منشورات الجامعة اللبنانية بالفرنسية والعربية، وملخصها الوافي في مقالة: "تجديد النظر في تاريخ لبنان"].

وهو يستخلص "أن مدارات المجادلة بين المؤرخين (في أمر "الحركات") هي نفسها مدارات المجادلة بين المحلّلين– أو بين السياسيين أو بين عامّة الناس أيضا في أمر الحرب الأهلية ... فالحاضر يُختلف في أمره، شأنه في ذلك شأن الماضي القريب والبعيد". ثم يستنتج أنّ هويات المؤرخين الطائفية هي ما يفسّر هذه المجادلات حول التاريخ التي تشبه مجادلات عامّة الناس حول شؤون الحاضر.

ولقد أمكن التعبير عن هذه الخلاصة شعرًا بالبيتين المأثورين:

وما كُتُبُ التاريخِ في كلِّ ما رَوَتْ

لقُرّائها إلّا حديثٌ مُلَفّقُ

نَظَرْنا لِأَمْرِ الحاضرينَ فرابَنا

فَكيفَ بِأمر الغابرينَ نصدِّقُ؟

تدعونا هذه الخلاصة إلى التفكير: إذا كان هذا شأن المؤرخين المختصّين، المدرّبين على التوثيق والمقارنة، فكيف يكون شأن جمهور العموم؟

ومن ذلك نستخلص العبرة: إنّ عموم الناس، بمن فيهم المشتغلون بالأمور الفكرية، تغمرهم منذ نشأتهم الأولى تحيّزات تلقائية للوسط الجماعي الذي نشأوا فيه، وقد يتكلّم هذا الوسط من خلالهم دون انتباه منهم.

لذا يدعونا أحمد إلى "لزوم جانب الشك والحيطة"، وهو ما تسميه مناهجنا التربوية الحديثة بالتفكير النقدي أو الناقد. ويمكن إيجازه بالأمثولة: تنبّه أو تيقّظ لتحيّزاتك الجماعية التلقائية، وفكّر قدر الاستطاعة بكيفيةٍ مستقلّة.

يصور لنا أحمد في مقالة أخرى له حول مشروع القانون المدني الاختياري للأحوال الشخصية مشهدًا معاكسًا في الظاهر للمشهد السابق الذي افترقت فيه روايات المؤرخين اللبنانيين وفق خطوط هوياتهم أو انتماءاتهم الطائفية. ذلك أنّه ما إن أعلنت الحكومة اللبنانية عن مشروع للقانون المذكور حتى هبّت مؤسسات الطوائف هبّةَ رجلٍ واحد لمعارضته وتسفيهه والتوكيد على الثوابت الشرعية الخالدة العابرة للزمن.

يحلّل كاتبنا استجابة هذه المؤسسات على هذا المشروع بأسلوب تتخلله كالمعتاد تهكّمات قارصة تبعث السرور في قلب القارئ المتعاطف. ما يهمّنا، في هذا المقام، أن نستخلص من هذا التحليل العبرة والأمثولة. وتفيد العبرة أنّ التقليد تحميه مؤسسات طائفية قوية تتوحّد عند الحاجة لتصون معاً الافتراق بين الطوائف. فيما تقول الأمثولة: اعتَمِد على نفسك عندما ترغب في أن تتزوّج أو تتزوّجي المختلف أو المختلفة دينًا، أو عندما تريد أن تورّث أبناءك وبناتك بالمناصفة...

يدرس أحمد في "أشياع السنة وأسنان الشيعة" طبيعة النزاع المذهبي بين الجماعتين الإسلاميتين ومولّداته الراهنة، المحلية والإقليمية، وكذا مولّداته الكامنة في الذاكرة الجماعية المتواصلة قرونًا أو العابرة للزمن بما تنطوي عليه من رموز وروايات وشعائر وطقوس ... إلخ.

إني أوصي طالباتنا وطلابنا الكرام بتخصيص هذا النصّ بعناية استثنائيّة في قراءاتهم، من غير خشيةٍ غير مبرّرة من الاقتراب من هذه الموضوعات التي يشيع عنها أنها حسّاسة أو غير آمنة أو حتى "مثيرة للفتن".

فالنصّ تحليل بارع للنزاع، والأهم أنه عالجه بروح الإنصاف والتلطف بالمتنازعين وتحذيرهم من بلاء الفتنة الكبرى. ويخيل إليّ أن قراءته قد تسهم بما يشبه العلاج

المعرفي لتحيزات القارئ التلقائية الكامنة، إذ تمنحه المعرفة بالحقيقة التاريخية– السياسية للنزاع، وكذا الفرصة للتبصر الواعي بتحيّزاته وربما التحكّم بها وتحييد أثرها في أحكامه ومشاعره وسلوكياته.

هذا بعض ما تراءى لنا من أثر تربوي وعلاجي محتمل لقراءة نصوص أحمد بيضون في نطاق الهويات الطائفية ومفاعيلها، فما هو المخرج الذي يقترحه علينا في هذا النطاق؟

إنّه يحكم، في دفتره الثاني للفسبكة، بأن الصيغة اللبنانية التي تتمثل فيها الجماعات الطائفية في مؤسّسات الحكم بأنصبةٍ أو حصص ثابتة– "في حالة موت سريري" ويقترح في المقابل في الدفتر نفسه وفي نصوص أخرى بديلاً لها يتمثّل في " دولة المواطنة" الديمقراطية الصرفة التي يتساوى فيها المواطنون الأفراد أمام القانون الذي ينظم تمثيلهم السياسي.

آمل أن يحتل هذا الحكم وذاك الاقتراح حيّزا في مناقشاتكم، وأودّ فقط أن أدعوكم كما سبق أن دعانا أحمد بشأن المؤرخين إلى "لزوم جانب الشك والحيطة". ولهذه الغاية أزوّدكم بقولين: الأول لأحمد في جمهوريته المتقطعة: لا أمل ولا حل إلا بالخروج من هذه الصيغة، ولكن المشكلة ليست الدواء بل هي المُداوون. إذ قلَّ من يريد الخروج من الصيغة. الحلّ يتيم لا أهل له كأن تدعو الطائفيين للخروج من الطائفية... والقول الثاني للرئيس حسين الحسيني يستشهد به أحمد في دفتره السالف ذكره مفاده: أن فلسفة الصيغة تتلخص في أن "الكلّ يحمي الكلّ"، وذلك في معارضة ذكية وحكيمة لمبدأ "الكلّ ضدّ الكلّ"، لذاك الفيلسوف الانكليزي المرعب.

بعد ذلك كله يبقى المهم: أن نقرأ أحمد بيضون ونعاود قراءته، وأن نشكر جمعية السبيل على تحفيزها قراءً جدداً لقراءته.

شكراً!